المكتبة الخضراء للاطفال

٥٣

تائه فى القناة

الطبعـــة الثانيـة

تأليف
يعقوب الشاروني

رسوم
سيندى عبد السيد

دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢١٩٩٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6883-6

٧/٢٠٠٥/٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

(١)

دخلت "الخالة أم مصطفى" مُندفعة من باب دارها المصنوع من الخشب السميك، ثم أغلقته خلفها بعنف، والباب لثقله يئز ويقاوم. مع أن الصباح ليس هو موعد إغلاق أبواب البيوت في قرية شارونة.

ودهش ابنها مسعود الذي يبلغ الثانية عشرة، فلم يسبق أن رأى هذا الباب مغلقًا خلال النهار. وزادت دهشته عندما وجد أمه تنقض عليه لتنتزعه من لعبة "السيجة" التي كان يلعبها مع أخيه محسن الأصغر منه بأربع سنوات، تُراقبهما اختهما "أزهار" التي تكبر "مسعود" بعامين.

أمسكته أمه بقوة من ذراعه وراحت تجذبه بعنف، بل تكاد "تسحبه" خلفها، ثم اندفعت تصعد به درجات السلم الطينية المتآكلة المؤدية إلى سطح الدار، وهو يصيح محاولاً التملص منها:

"اتركيني ... لماذا تسحبينني هكذا؟ ماذا حدث؟".

ولم تتوقف الأم لتجيب عن أسئلة ابنها واحتياجاته المتلاحقة بل استمرت تجذبه في لهفة وهي تُهمهم بكلمات متقطعة استطاع مسعود أن يفهم بعضها من خلال أنفاسها اللاهثة.

"نهم في الطريق إلى هنا.. سيأخذونك ولن تعود كما أخذوا أخاك مصطفى.. أسرع.. أسرع معي..".

وفوق السطح عند صومعة حفظ حبوب الذرة، العالية المنتفخة البطن، حملت الأم ابنها حملاً، ورفعته فوق سطح عشة الدجاج المجاورة وهي تأمره في حسم:

"تسلق الصومعة واقفز داخلها.. اقفز بسرعة لكي لا يجدوك.."

كان الاضطراب الهائل الذي سيطر على تصرفات الأم وحركاتها وصوتها الملهوف الصادر عن أقصى درجات الهلع، هما اللذان جعلا ابنها "مسعود" لا يسأل أسئلة أخرى، بل أطاع بغير تردد وقد فهم أن خطرًا داهمًا يترصده لينتزعه بعيدًا عن شارونة وعن أمه وإخوته.

وكادت قدماه تغوصان في الفتحات بين جريد النخل وحطب الذرة الذي يغطي سقف العشة، لكن أصابع يديه استطاعت أن تتشبث بالحافة العليا لفوهة الصومعة. ثم زحف بجسمه على السطح الخارجي المنحدر للصومعة حتى اعتلاها، وبقفزة واحدة سقط داخلها فوق كوم حبوب الذرة الذي ملأ أقل من نصفها، مع أنه كان من المعتاد أن تكون الصومعة ممتلئة حتى حافتها في مثل هذا الموسم من كل عام.

صاحت فيه أمه: "لا صوت ولا حركة.. كأنك غير موجود!"

ثم أسرعت تنزل من فوق سطح الدار، وأمسكت ابنها "محسن" الصغير وصاحت فيه آمرة: "إياك أن تقول شيئًا.. هي عبارة واحدة لا تقل غيرها: "لا أعرف" .. إياك أن تزيد ! هل فهمت؟!"

وهز محسن رأسه بما معناهُ أنه فهم، فالتفتت الأم إلى ابنتها "أزهار"، وقالت وهي تشير بذارعها وسبابتها إلى داخل الدار:

"وادخلي أنتِ.. لا أريد أن يراك أحدٌ، خاصةً مخلوف شيخ البلد الرذل!"

ثم عادت الأم إلى باب الدار تفتحهُ بهدوء كأنما لم تغلقه بكل ذلك العنف منذ دقائق، وهي تحاول السيطرة على نفسها لتبدو كأن شيئًا مهمًا لا يشغلها.

لقد أخفت ابنها "مسعود"، وظنت أنها بهذا قد أبعدته عن أيدي السلطة الغاشمة!

(٢)

نبحت الكلاب بشدة، وثار الغبار في الدرب الذي يطل عليه باب دار أم مصطفى، وأسرعت مجموعات الدجاج والبط تهرب فزعة صائحة إلى جانبي الدرب، تُفسح الطريق لشيخ البلد "مخلوف" واثنين من الخفراء، ومعهم "أبو وليدة زرقاء" وهم الاسم الذي أطلقه أهل قرى مديرية المنيا على مندوب جمع العمال اللازمين لحفر "قناة صحراء السويس"، وهم الفلاحون الذين يتم جمعهم تنفيذاً لطلبات شركة قناة السويس، وهي طلبات متوالية تقدمها بإلحاح إلى أفندينا الوالي "الخديوي سعيد باشا" حاكم مصر سنة ١٨٦١م، وأكبر مُساهم في رأسمال تلك الشركة، التي ورطته في شراء حوالي نصف أسهمها، فأصبح من مصلحته الشخصية أن يتم حفر القناة بأقل تكلفة.

وكان يتبع مُمثلي السلطة الأربعة، حشد من صغار الأطفال ليس بينهم رجل ولا شاب واحد من أهالي قرية شارونة بمديرية المنيا بصعيد مصر!

وتوقف "ممثلو السلطة" أمام دار الخالة أم مصطفى، وصاح الخفير عمران:

"يا مسعود .. العمدة يطلبك!"

صاحت الخالة المتوارية خلف باب دارها المفتوح: "ابني مسعود في الغيط منذ الفجر".

وبغير تردد صاح شيخ البلد آمرًا الخفيرين: "ابحثا عنه.."

وبدون استئذان اقتحم الخفيران باب الدار والأم تحاول إغلاقه فلا يستطيع!

وأصبح الباب مفتوحًا عن آخره، فهرول الخفيران إلى داخل الـــدار، ووجدت الخالة أم مصطفى نفسها في واجهة شيخ البلد!

صاحت الخالة: "أخذتم ابني الأكبر مصطفى قبـــل أن يبـــذر تقـــاوي الذرة، ليحفر هذه القناة التي تقولون عنها، والآن لا نجد من يجمع لنا قناديل الغلة.. ثلاث مرات يظهر القمر ثم يختفـــي ومـــصطفى لـــم يرجع.، والله وحده يعلم متى يعود وما إذا كان مُقدرًا لـــه أصـــلاً أن يعود!.. لن تأخذوا أخاه قبل أن يرجع!"

صاح شيخ البلد مُهددًا في جفاءٍ: "لا جدوى من إنكار وجود ابنـــك.. أنت تقاومين الحكومة!".

ثم التفت إلى "أبو لبدة زرقاء" يطلبُ معونته في تأكيد تهديداته قـــائلاً له: "قل لها إنها أوامر من فوق يا شيخ جرجاوي؟!".

قال جرجاوي مندوب جمع العمال صائحًا في الخالـــة أم مـــصطفى: "إعلان الحكومة علقناه على باب المـــسجد، والكـــلام فيـــه واضـــح: الفلاحون مطلوبون للعمل في حفر صحراء السويس لمدة شهرٍ واحدٍ يعودون بعده.. طول الطريق هو سبب تأخرهم في العودة".

صاحت الخالة: "أي إعلان هذا الذي تتحدث عنه؟! نحـــن لا نعـــرف قراءة ولا كتابة.. أعرف فقط أنه مضت شهور منذ ذهاب ابني الكبير مصطفى وأنه لم يعد حتى الآن، والإشاعات كثيرة!!".

ثم تحفزت كأنها تتأهب لتنقض بأظافر يديـــه علـــى وجـــه مخلـــوف وصاحت: "ماذا فعلتم بابني؟! وما هو هذا الطريق الذي يحتاج شهرين للذهاب وشهرين مثلهما للعودة يا شيخ مخلوف؟! لمـــاذا لا تريـــد أن تتركنا في حلنا يا شيخ البلد؟!!".

في تلك اللحظة خرج الخفير عمران من باب الدار وقد أمسك بذراع ابنها الصغير محسن (٨ سنوات) يجذبه خلفه والولد يصرخ ويحاول التخلص من قبضته، بينما أخته أزهار (١٤ سنة) تمسكه من ذراعه الأخرى تُحاول إنقاذه من قبضة الخفير القوية وهي تصيح: "لن تخطفوا أخي الصغير.. سيموت بين أيديكم!".

صاح شيخ البلد بالخفير: "لا نريد هذا الصغير..".

عندئذ ظهر الخفير الثاني خارجًا من باب الدار وهو يقول: "لم نجد إلا هذا!!".

صاحت الأم وهي تلقي بنفسها على أصغر أبنائها: "أوقفوا هذه الغارات علينا... ارحمونا... نريد أن نعيش!"

تجاهل شيخ البلد صياحها وقال في صوت جاف لمندوب الشركة: "تأخذ هذا الصغير إلى أن تسلم لنا أمه أخاهُ الأكبر منه، أليس كذلك؟!".

وقبل أن يجيب المندوب، تشبثت الأم بأصغر أبنائها الذي لا ترتفع قامته عن وسطها، وصرخت نادبة نائحة: "يكفي ما أخذتم.. الرجال والغلال.. ابتعدوا عن الأطفال!".

لكن الخفيرين انتزعا في عنفٍ "محسن" الصغير من بين أحضانها، وشيخ البلد يقول لها متوعدًا: "يبقى في حجز دوار العمدة إلى أن يسافر مع المسافرين لحفر القناة، إلا إذا أحضرت أخاه "مسعود" الأكبر منه قبل السفر".

نهنهت الخالة أم مصطفى ودموعها تنساب بغير توقف وهي تهمس لنفسها من بين شهقاتها: "تُلقي بأبنائي إلى الموت في جحيم السلطة يا شيخ مخلوف لأنني رفضت أن ألقي بابنتي أزهار في نار حريم بيتك المشتعلة؟! ربنا على الظالم!!".

فقد كان أهل شارونه يعرفون أن "مخلوف" شيخ البلد قد طلب من الخالة أم مصطفى أن يتزوج ابنتها أزهار، وهو يقصد أن يجعلها تخدم زوجاته الثلاث وسط شجارهن العنيف الذي لا يتوقف، وتظل البلد كلها تتحدث عنه مرة بعد أخرى، لكن الخالة رفضت هذا المصير لابنتها، وقد أصبحت على ثقة الآن أن شيخ البلد لن ينسى لها رفضها هذا!

(٣)

على "الدكة" الخشبية المستطيلة في "مندرة" عمدة قرية شارونة، كان جرجاوي مندوب شركة القناة يُحرك سبابته أمام وجه العمدة مهددًا وهو يقول:

"أوامر المديرية تُلزم قرية شارونة بتقديم عشرين من الرجال والشباب، لتتعاقد معهم الشركة هذا الشهر للمشاركة في الحفر، لكنني لم أجمع طوال اليوم وحتى المغرب هذا النهار إلا ثلاثة عشر، عمرهم جميعًا أقل من خمسة شعر عامًا، وبعضهم عمره ثماني سنوات.. أنت تقوم بملعوب خطير يا عمدة! لقد نبهت أهل البلد قبل وصولي، فهرب الرجال والشباب إلى الجبل أو للاختباء بين الأعواد الطويلة في حقوق الذرة، فلم نعثر على واحد منهم حتى الآن!"

قال العمدة في احتجاج: فلم نعثر على واحد منهم حتى الآن!"

قال العمدة في احتجاج: "منذ أربعة أيام وأنت تزور القرى المجاورة واحدة بعد الأخرى.. هل تظن أن أخبار زياراتك لم تصل إلى شارونة قبل أن تغادر أي بلد مجاور؟!"

قال جرجاوي في تحدٍ: "كان يجب أن تتحفظ عليهم يا عمدة! أنت تعرف أننا قادمون لأخذهم!!".

قال العمدة في غضب: "البلد كلها أمامك.. أنت لم تترك فيها رجالاً ولا شبابًا.. أخذتهم جميعًا في المرات السابقة ليعملوا في حفر تلك الصحراء. كذلك لم نسمع أنه مسموح لك أن تأخذ للسخرة أطفالاً لا تزيد سنهم على ثماني سنوات!!"

صاح جرجاوي (وهو يعرف أن مديرية المنيا شددت على العمد أن يساعدوا

المندوبين أمثاله، بكل الطرق وبكل قوة وحزم، لتجنيد أكبر عدد من الفلاحين وإجبارهم على وضع بصمات أصابعهم على ورق العقود اللازمة لتشغيلهم):

"لا تقل سخرة يا عمدة!.. إنهم يضعون بصماتهم على عقود (مع أنه يعرف أنهم أميون لا يقرءون)، وهم بهذا يعلنون أنهم يذهبون برغبتهم وإرادتهم (مع أنه يحرص العمد على إجبار الفلاحين على وضع بصماتهم تحت التهديد بالضرب والإهانة والحبس)، ويأخذون أجورًا مقابل عملهم: قرشين ونصف القرش للرجل عن كل يوم عمل". (مع أنه يعرف أن هذه الأجور تافهة جدًا، وأن العمال لا يتسلمون أجورًا، بل أوراقًا قالت لهم الشركة إنهم يمكن أن يقبضوا بمقتضاها بعد رجوعهم على قراهم، وأنه لا بد من سفرهم من المنيا إلى أسيوط ليقبضوا من مكتب الشركة هناك، فإذا استطاع أحدهم تحمل نفقات السفر من شارونة بالمنيا إلى أسيوط ليتسلم أجره، فإنه سيجد الأجور التافهة عن عمله في الحفر قد خصموا منها مكافأة مندوبي جمع العمال، ومكافأة رؤساء العمال في ساحات الخفر، ونسبة كبيرة لأفندينا الخديو، لأن رجال السلطة التابعين له هم الذين ساعدوا في جمع العمال، ولأن الحكومة هي التي تحملت نفقات تنقلاتهم وسفرهم، فلا يبقى للعامل شيء بعد نفقات سفره إلى أسيوط، في مقابل غيابه عن زراعته ثلاثة أشهر وعمله الشاق شهرًا في تحطيم الصخور وحفر رمال الصحراء).

ثم ارتفعت لهجة التهديد في حديث جرجاوي وهو يقول:

"وستكون أنت المسئول يا عمدة إذا لم يتوافر العدد المطلوب من الفلاحين.. نظام تشغيل العمال الذي أصدره "أفندينا الخديو" (ولاحظ

العمدة أن المندوب نطق هذه العبارة الأخيرة ببطء ووضوح لكي لا يغيب معناها أبدًا عن ذاكرته!).. هذا النظام يُعطي الشركة الحق في تشغيل الأطفال الذين يقل عمرهم عن اثنتى عشرة سنة. اقرأ الإعلان جيدًا يا عمدة أو اطلب من أحدهم أن يقرأه لك!.. الإعلان يقرر أن أجر هؤلاء الأطفال قرش كامل عن كل يوم يعملون فيه في ساحات الحفر، ولائحة النظام "الخديوية" لم تحدد سنًا معينة لتشغيل الأطفال: ثماني سنوات أو سبع أو أقل.. قالت فقط: أقل من اثنتي عشرة سنة!".

قال العمدة: "لكن أخبارًا سيئة وصلت البلد!.. دُفعة الشباب التي سافرت آخر مرة إلى ساحات الحفر منذ أكثر من ثلاثة أشهر، لم ترجع حتى الآن!".

صاح جرجاوي متوعدًا: "لا تجر وراء الإشاعات يا عمدة! سيعودون كلهم بإذن الله! لكنني أحذرك من الظن بأن أقاويل النساء في قريتك هذه ستعفيك من مسئولية تحريض الناس على الهرب من التوقيع على عقود العمل في الحفر، أو التخلف عن السفر بعد التوقيع!".

قال العمدة مراوغًا: "لا تزال أمامنا عدة أسابيع قبل الميعاد المحدد لسفر هذا الفوج إلى صحراء السويس!".

قال جرجاوي: "لا بد أن أواصل زياراتي إلى قرى أخرى متعددة تابعة لمركز مغاغة، حتى يكتمل العدد المطلوب أن أجمعه من المركز لهذا الفوج.. المديرية تشدد على ضرورة تجميع الفوج الجديد كله قبل أن يعود الفوج السابق. أفندينا الخديو لا يريد مشاكل مع الشركة، ولا يريد أن تتعطل أعمال الحفر يومًا واحدًا.. فوج في طريق الذهاب للعمل في حفر القناة، وفوج آخر في طريق العودة، ليحل الجديد محل السابق في نفس اليوم في ساحات الحفر".

ولم يستطع العمدة أن يمنع نفسه من أن يقول في احتجاج لمندوب الشركة: "يا شيخ جرجاوي.. أنت تحصل عن كل رجل تقوم بتوريده للشركة، على مبلغ نصف قرش عن كل يوم يقضيه العامل في عمليات حفر القناة، فلم يعد يهمك حرمان الحقول من عمل الفلاحين، فلا بذر للبذور، ولا جني للمحاصيل، ولا خدمة للزراعات! هذا خراب للبيوت يا شيخ جرجاوي! لماذا يبقى الرجال في سجن الحجز أسابيع بلا عمل ينتظرون السفر إلى ساحات الحفر في تلك الصحراء؟!".

قال جرجاوي في حسم وفراغ صبر: "الأوامر هي! وسيظل الفوج الجديد بعد تجميعه تحت المراقبة المسلحة في حجز مركز مغاغة لكي لا يهرب أحدٌ، إلى أن تصدر إليهم الأوامر بركوب الصنادل والسفن للتحرك إلى ساحات الحفر. ولا تنس يا عمدة أن يضع كل واحد بصمة أصبعه على ورقة العقد.. أفندينا لا يريد أن يثير أي حديث عن السخرة!".

(٤)

وضعت الخالة أم مصطفى الطين فوق لرأســـها، وصـــبغت وجههـــا "بالنيلة الزرقاء"، ووقفت تلطم خديها أمام باب دوار العمدة وتصيح:

"اتركوا لي ولدي.. ستقتلون ولدي الأصغر كما قتلتم مصطفى أخـــاه الأكبر.. ابعد عنا شيخ البلد يا عمدة!"

كانت تصرخ وهي تستعيد إشاعة سرت في البلد، حملها معه رجـــلٌ من قرية "الشيخ فضل" المجاورة، عاد أخيرًا من ساحات حفر القنـــاة في صحراء السويس وقد هده المرض، وامتص منه الإعياء كل قدرة على العودة إلى العمل في الحقول.

قال بعض الناس أنهم سمعوا ذلك الرجل يقول: "عدد كبير من الرجال الذين ذهبت معهم إلى ساحات الحفر منذ ثلاثة أشهر من أهل شارونة والقرى التابعة لنفس مركز مغاغة، لم يعودوا معنا ولا أحد يعـــرف مصيرهم، ولم نشاهدهم مع العائدين وهم يسلموننا أوراقًا بدل أجورنا، قالوا إنها تحافظ على حقوقنا التي لا نعرف عنها شيئًا!!".

وقد انقضت ساعات الصباح كلها والخالة أم مصطفى لا تتعب مـــن الصياح أمام دوار العمدة، حتى اضطر العمدة أن يصيح أخيرًا فـــي الخفير عمران: "اطرد هذه المرأة بعيدًا!".

قال الخير: "حاولنا معها كثيرًا، لكنها تعود كلما أبعدناها".

قال العمدة متوترًا: "احضرها أمامي..".

* * *

صاح العمدة في الخالة أم مصطفى قائلاً في حسم: "هي كلمة واحدة،

احضري لمندوب جمع العمال ابنك مسعود (١٢ سنة)، فلسلمك في الحال ابنك الآخر محسن (٨ سنوات)"

صرخت الأم: "هذا تدبير مخلوف شيخ البلد!.. من غيره أرشد المندوب إلى أبنائي الصغار؟! تأخذون اثنين في وقت واحد من أولادي ليموتوا معًا في الحفر يا عمدة؟! والله العظيم هذا حرام! تذكر أنني أرملة أرعى أيتامًا بعد موت "أبو مصطفى".. الزراعة بارت وحبوب الذرة تتساقط على أرض الحقل من قناديلها التي لم تجد من يجمعها.. البيت خرب ونحن نرى فيك الوالد لكل الأيتام يا عمدة!".

قال العمدة في لهجة مواسيةٍ: "ليس بيدنا شيء!.. هذه أوامر أفندينا، تُنَفّذها المديرية بكل شدة ودقة!"

قالت الأم وقد فهمت من لهجة العمدة الجادة أن صراخها لن يغير من الأمور شيئًا:

"وهل أوصاكم أفندينا على أبناء أم مصطفى المغلوبة على أمرها دون غيرها؟!! منك لله يا شيخ مخلوف!!".

وفهم العمدة من لهجتها التي شابها قدر من التعقل أنها بدأت تدرك مدى سطوة السلطة القاهرة التي لا مهرب منها، فالتف إلى الخفير عمران وصاح فيه آمرًا:

"اذهب مع الخالة أم مصطفى إلى بيتها، واحضر معك ابنها مسعود".

صاحت الأم: "أتسلم ابني الصغير "محسن" قبل أن نذهب.."

قال العمدة وقد عادت إليه صرامته: "هل كلمة واحدة: احضري "مسعود" الأكبر، نُسلمك "محسن" الأصغر!".

* * *

لم يكن أمامها اختيار .. قيل لها إن جرجاوي على استعداد لترك أبنائها إذا استطاعت أن تقدم له خمسة جنيهات كهدية، وعندئذ لن يهتم بما قد يقوم به شيخ البلد ضدها من تحريض. لكن من أين يأتي لها بخمسمائة قرش مرة واحدة؟! إنها ثروة طائلة، خاصة وهي تعرف أن العامل في حفر قناة السويس لا يأخذ مقابل عمله شهرًا بطوله في الحفر إلى خمسة وسبعين قرشًا فقط لا غير! هذا إذا تسلمها أصلاً!!

لكن كيف يتحمل طفل عمره ثماني سنوات مثل محسن الصغير مشاق سفر يستغرق شهرًا في النيل ثم سيرًا على الأقدام، ثم العمل شهرًا آخر في حفر "القناة" ذلك المجهول الذي يمتص عافية الرجال الأشداء، ثم العودة في طريق صعب يستغرق شهرًا ثالثً؟!!

إذا تركت ابنها الأصغر يذهب فمن المؤكد أنه لن يعود.. لا مفر إذن من السماح بذهاب أخيه الأكبر منه "مسعود" (١٢ سنة) بغير انتظار عودة الأخ الأكبر مصطفى (١٨ سنة).. عودة مسعود محتملة، أما ذهاب محسن الصغير فبغير عودة!

* * *

وخرجت قرية شارونة تواسي الخالة أم مصطفى وهي تشيع ابنها "مسعود" أثناء ذهابه مع الخفير عمران إلى دوار العمدة.

كانت تصيح وتكرر قائلة مرة بعد أخرى من بين دموعها:

"حافظ على نفسك يا مسعود.. ابحث عن أخيك الكبير مصطفى.. نار قلبي لن تبرد إلا إذا عرفت ماذا حدث لأخيك مصطفى يا مسعود".

ثم أحاطوا بها وهي راجعة إلى بيتها تحتضن ابنها الأصغر "محسن"، يحاولون التخفيف عنها بغير جدوى، وهي تئن أنينًا يقطع القلوب، تنتحب وتقول في مرارةٍ:

"أنا الأرملة يأخذون مني اثنين لحفر تلك القناة!! منك لله يا شيخ مخلـــوف! من يزرع القراطين؟! من يجمع المحصول؟! كيف نعـــيش؟! أيـــن الأرض التي تحملك فوقها أو تحتها يا مصطفى؟!!".

* * *

لكن، مع أحزانها، كان لا بد للخالة أم مصطفى أن تحمل صباح كـــل يوم طعامًا لابنها مسعود في حجز دوار العمدة.

ثم فوجئت بعد أربعة أيام بالخفير عمران يـــذهب إليهـــا فـــي بيتهـــا لإبلاغها بأمر هام قال:

"العمدة ينصحك أن ترسلي إلى ابنك من البتاو والبصر والملوخية ما يكفيه شهرًا على الأقل!"

عندئذ عرفت الخالة أم مصطفى أن ساعة رحيل ابنها الثاني قد أقبلت، فلم تتوقف دموعها.

(٥)

لم ينس مسعود كيف شيعت شارونة كلها أبناءها العشرين الذين كان هو من بينهم، فقد تعالى العويل والصراخ بينما القارب الشراعي يعبر بهم النيل إلى مركز مغاغة، يحرسهم الخفراء تحت رقابة مخلوف شيخ البلد، الذي عيّنَهُ جرجاوي ليصبح واحدًا من رؤساء العمال، ومسئولاً عن توصيل أبناء شارونة إلى ساحات الحفر في صحراء السويس، وحراستهم هناك لمنعهم من الهرب!

وقد لاحظ عدد من أهل شارونة ازدياد عويل الخالة أم مصطفى عندما عرفت أن "شيخ البلد الرذل" سيكون هو المتحكم في مصير ابنها مسعود حتى يعود، أو لا يعود!

أما مسعود فقد قال لصديقه "مندور" ابن قرية شارونة الذي انتزعوه مثله ضمن ذلك الفوج وإن كان يكبره بثلاثة أعوام: "هل سيسخطنا الشيخ مخلوف قرد أم غربانًا؟! ماذا نملك ليأخذه منا؟!".

ثم أضاف هامسًا لنفسه: "بل نملك عافيتنا!"

لكنه لم يُصرح بهذا لصديقه مندور.

ولسوء الحظ كان هناك شيء هام لو عرفه مسعود لازداد قلقه، ذلك أن جرجاوي قال لمخلوف:

"في ساحات الحفر يجلدون رئيس عمال الفوج عشرين جلدة ويخصمون من أجره خمسة عشرة يومًا، عقوبة عن كل فرد من أفراد الفوج يتمرد على حراسة رئيسه ويهرب، ولذلك فإنه مسموح لرئيس العمال أن يجلد عماله الذين تحت حراسته لكي يتفادى الجلد هو نفسه!!".

ومع ذلك فوجئ الشيخ مخلوف عندما وجد رجال السلطة في مركز مغاغة يطلبون منه أن يبقى مع العشرين من أهل شارونة داخل حجز المركز!

قال له جرجاوي: "هذا إجراء ضروري لكي يظلوا تحت رقابتك المباشرة المستمرة!.. افتح عينيك واذنيك جيدًا لتعرف لحظة بعد لحظة ماذا يدبرون من خلف ظهرك!!".

ثم أخذ جرجاوي مندوب الشركة خمسة فلاحين اقتنصهم من قرية الشيخ فضل المجاورة لشارونة، وأضافهم إلى العشرين الذين يحرسهم مخلوف، لأن كل رئيس عمال جعلوه مسئولاً عن خمسة وعشرين على الأقل من الفلاحين المسخرين في ذلك الفوج للعمل في حفر قناة السويس.

* * *

وقد وجد مسعود نفسه داخل مركز مغاغة محشورًا مع ثلاثمائة آخرين أخذوهم من مختلف قرى المركز حتى ضاق بهم الحجز.

قال مسعود لصديقه "مندور" وقد تعذر عليهما أن يجدا مكانًا كافيًا للنوم على بلاطات الأرض الحجرية:

"لماذا يضعون على الباب هؤلاء "القواصة" (رجال شرطة ذلك الزمن) المسلحين بهذه البنادق الطويلة؟! إن رجال الأمن هؤلاء يعاملوننا أننا مذنبون متهمون في جنايات؟! ما الذي ينتظرنا في حفر هذه القناة حتى يتوقعوا أن نهرب في كل لحظة؟!".

قال مندور: "المصيبة أنهم أجبرونا على أن يضع كل واحد منا بصمة السبابة والإبهام على أوراقٍ قالوا أنها عقود العمل مع الشركة، بغير أن يفهم أحدنا هذا الذي بصمنا عليه.. هل تسمح لهم هذه العقود بحبسنا في هذا السجن؟!".

وسمع مخلوف العبارة الأخيرة التي قالها مندور لمسعود، فانقض عليهما بعصاه وهو يصيح: "بماذا تتهامسان؟ إياكما والتفكير في الهرب!".

ثم "لسع" كالاً منهما على كتفيه عدة مرات بطول عصاه، فقفز مسعود واقفًا وتشبث بالعصا بيديه وهو يصيح:

"من هذا الذي تحدث عن الهرب؟! وماذا تريدون منا حتى تخافوا كل هذا الخوف من أن نهرب؟!".

ولم يسمع مخلوف بقية عبارة الصبي الغاضبة، فقد استشاط غيظًا وهو يستخلص العصا من بين يدي مسعود لينهال بها كالمجنون فوق كل جزء من جسد الصبي، فألقى مندور بنفسه بين صديقيه وشيخ البدل الذي فقد زمام نفسه، بينما أسرع بقية شباب شارونة يبعدون "مخلوف" عن مسعود وهم يتصايحون.

صاح مخلوف في الشباب: "هل رأيتم كيف يتحداني هذا العيل؟! أنا شيخ البلد كيف يجرؤ هذا الولد على الصياح في وجهي؟!".

ولم يحاول أحد من الشباب تذكير شيخ البلد بأنه الذي اعتدى بغير مبرر على الصبي، بل اكتفوا بإبعاد مسعود عن عصا مخلوف بغير أن يهمس أحدهم بكلمةٍ.

لكن "مندور" لم يستطع منع نفسه من الهمس في أذن مسعود خلال لحظة تأكد فيها من ابتعاد مخلوف عنهما:

"هذا الرجل يكرهك، ويتربص بك منتظرًا أية فرصةٍ تتاح له ليؤذيك!"

فتجمدت نظرات مسعود وهو يحدق في عروق الأخشاب السوداء التي تحمل سقف غرفة الحجز، ولم يقل شيئًا.

(٦)

قال مخلوف شيخ البلد لقائد الصندل (السفينة) الذي رسا أخيرًا على شاطئ مغاغة، وبدأ في شحن الذاهبين إلى القاهرة في طريقهم لمواجهة المجهول الذي ينتظرهم في صحراء السويس:

"نحن في انتظاركم منذ أسبوعين في حجز مركز مغاغة، بعد الحجز خمسة أيام قبل ذلك في دوار عمدة شارونة!".

قال قائد الصندل: "أنا أعمل في نقل "البلاليص"، لكنني أصبحت أخيرًا أعمل بالأمر في نقل البشر. لقد وافق أفندينا أخيرًا على طلب شركة القناة بمضاعفة عدد من ترسلهم الحكومة لساحات الحفر، إلى أربعين ألف فلاح كل شهر. أربعون ألفًا يكونون في طريق الذهاب، في نفس الوقت الذي يعمل فيه فعلاً في الحفر أربعون ألفًا آخرون، ويكون هناك أربعون ألفًا قد انتهوا من العمل وفي طريقهم للعودة إلى قُراهم.. مائة وعشرون ألف فلاح يجب نقلهم من زراعاتهم وقراهم كل شهر، فاستولت الحكومة على سفننا لأن سفن الحكومة لم تعد تكفي لنقل كل هذه الأعداد الهائلة من المقبوض عليهم لحفر القناة، خاصة بعد إرسال جنود الجيش هم أيضًا ليعملوا في الحفر!".

قال شيخ البلد مخلوف غير مصدق: "لا أظن أن الشركة تستخدم جنود الجيش في الحفر، وإلا فلماذا يجمعون الفلاحين الذين أحرسهم من أبناء القرى؟!".

قال قائد الصندل: "ومن قال إن جنود الجيش قد عملوا فعلاً في الحفر؟! لقد حملتهم سفينتي هذه من محافظة قنا إلى القاهرة ومنها سافروا بالقطار إلى صحراء السويس حيث ساحات الحفر. ولا أدري

السبب في أنني وجدتهم يعودون بعد أسبوعين إلى سفينتي لأرجع بهم حيث تركتهم هنا في مدينة المنيا مساء أمس، ومنها يواصلون العودة إلى قُرى قنا، كل واحد بالطريقة التي يمكنه استخدامها، حتى المشي على القدمين!".

سأل شيخ بلدة شارونة بدهشة: "هذا غريب جدًا!! هل عرفت لماذا عادوا بهذه السرعة؟".

هنا تشاغل قائد السفينة بعمله في قيادة الصندل الذي بدأ يشق طريقه إلى القاهرة، فأدرك مخلوف أن الرجل تنبه إلى إفراطه في الحديث فتوقف لا يريد أن يحكي أكثر مما حكى.

لكن أحدًا منهما لم ينتبه إلى أنه، بالقرب منهما، التف صبي حول نفسه وقد تغطى بجوال من الخيش فلم يظهر منه شيء، كان يُصغي بانتباه شديد إلى كل كلمة تم تبادلها في ذلك الحديث العجيب بين قائد الصندل ومخلوف، خاصة حكاية عودة جنود الجيش السريعة غير المفهومة من ساحات الحفر!!

سأل مسعود نفسه وهو يستعيد كل كلمة في ذلك الحديث الذي لم يقصد أن يستمع إليه: "هل يمكن أن أجد عند قائد هذه السفينة التي تحمل الذاهبين والعائدين إلى صحراء السويس، أية معلومات تقودني إلى معرفة مصير أخي الأكبر مصطفى، الذي ذهب لحفر القناة منذ أكثر من ثلاثة أشهر ثم انقطعت أخباره؟!".

* * *

ورغم رقابة مخلوف للصبي مسعود، فقد استطاع الفتى أن يتسلل ذات مساء إلى جوار الريس عبد الحفيظ قائد السفينة وهو جالس أمام عجلة

القيادة الكبيرة، يشعر بالملل ويُرحب بمن يتبادل معه أي حديث.

سأله مسعود: "قل لي يا عم الريس.. هل حدث أن عاد على سفينتك بعض من سافروا للعمل في حفر قناة صحراء السويس؟".

قال الريس: "نادرًا.. فهذه السفينة استأجرتها الحكومة مني لاستخدامها في نقل عمال الحفر من الصعيد إلى القاهرة. أما عند عودتهم من ساحات الحفر، فالحكومة تترك الفلاحين يعودون من القاهرة إلى قُراهم بمعرفتهم، إلا إذا كان هناك خط سكة حديد فهم يستخدمون بغير مُقابل، ولأنه لا يوجد خط للسكة الحديد من القاهرة إلى الصعيد فالفلاحون يعودون كل واحد بطريقته، وهم – عادة – يستخدمون السفن الشراعية التي يتبرع أصحابها باصطحابهم إلى أقرب شاطئ للقرى التي جاءوا منها".

سأل مسعود: "وهل يعودون – كلهم – من الحفر إلى القاهرة؟".

قال عبد الحفيظ: "كثيرون يتخلفون في ساحات الحفر!".

سأله مسعود: "وهل عرفت سببًا لتخلف هؤلاء في صحراء السويس؟".

قال عبد الحفيظ: "هم لا يتخلفون برغبتهم". ثم تمهل ليقول: "لكن.. لماذا تسأل؟!".

قال مسعود: "لي أخ أخذوه إلى هناك منذ أكثر من ثلاثة أشهر ولم يرجع حتى الآن".

قال ريس المركب: "الأخطار هناك كثيرةٌ..".

ثم استدرك قائلاً: "لكن الأخطار تحيط بالإنسان في كل مكان!"

عاد مسعود يسأل: "هل حدثك أحد العائدين عن بعض تلك الأخطار؟".

قال الريس عبد الحفيظ: "الوباء.. انهيار الرمال.. العطش!".

صاح مسعود: "تقول العطش؟! ليس أكثر من الماء في بلدنا!".

قال الريس عبد الحفيظ: "الحفر يتم في صحراء.. في الرمال والصخر.. أقرب ترعة ماء عذب تنتهي على مبعدة أربعة أيام سيرًا على الأقدام من ساحات الحفر.. أنصحك أن تأخذ معك قلة ماءٍ ولا تتخلى عنها أبدًا".

* * *

في تلك اللحظة ساد السفينة المزدحمة المكدسة بالبشر هرج شديد، فانقطع حديث مسعود مع قائد السفينة الذي جاء إليه أحد البحارة يقول منفعلاً: "اكتشف رئيس عمال قرية الكوم الأحمر المجاورة لشارونه هرب أحد القادمين من قريته وتحت حراسته".

وعلى سطح الصندل وقف عشرات الرجال في حلقة يتوسطها ثلاثة من "القواصة"، وقد أمسكوا برئيس عُمال الكوم الأخضر وطرحوه أرضًا تنفيذًا لأمر معاون البوليس (ضابط شرطة تلك الأيام) الذي أرسلته مديرية المنيا لحراسة عمال حفر القناة على ظهر الصندل وهم في طريقهم من الصعيد إلى القاهرة. ثم أمسك اثنان بساقي الرجل وكشفوا عن قدميه. وبعدها انهال الثالث بعصا على باطن القدمين يضربه بقسوة عشرين ضربة، لأنه أهمل في حراسة عماله!!

وفي الحال أصدر مخلوف أمرًا للفلاحين الذين تحت حراسته بالنزول فورًا إلى بطن الصندل.

وفي ظلام المخزن المتسع وسط الروائح الفاسدة، وجد الصبي مسعود

نفسه مع صديقه مندور وبقية الرجال من شارونه وقد تم ربطهم الواحد إلى الآخر بحبل غليظ أمسك شيخ البلج بطرفه.

قال مسعود لنسه: "ليتني كنت أنا الذي قفزت إلى الماء هاربًا من هذه السفينة، لأسبح في هدوء إلى الشاطئ ثم أعود مشيًا إلى شارونة حيث أختبئ هناك في أي مكان، لكي لا أتعرض للموت عطشًا أو دفنًا تحت الرمال وسط صحراء السويس".

ولم يكن يعرف أن هناك أسبابًا أخرى للموت في تلك الصحراء!

(٧)

أخيرًا رسا الصندل على ساحل بولاق بالقاهرة، لكن "مخلوف" رفض أن يفرج عن مسعود ورفاقه من بطن الصندل، انتظارًا لمعرفة موعد قيام القطار الذي سينقلهم من القاهرة إلى بنها ثم الزقازيق في طريقهم إلى ساحات الحفر.

وبعد ساعات، عندما سعد مسعود إلى سطح الصندل، أدهشته الحركة التي يموج بها شاطئ النيل عند بولاق (عام ١٨٦١)، وأصوات المطارق التي تدوي بغير انقطاع، ومئات العمال وقد انهمكوا في بناء السفن أو إصلاحها، وحولهم دكاكين التجار الذي يبيعون الأخشاب والأحبال وغيرها، من مستلزمات صناعة وصيانة السفن، مع باعةٍ جائلين يبيعون "الطعمية والمشبك" وما يُماثِلها من أطعمة شعبية.

ومع أن "مسعود" لم يأكل إلا البتاو والمش والبصل والملوحة وبضع بلحات وحبتين من الكشك المصنوع من حبوب القمح واللبن، فإن الصبي لم يطف بخاطره أن يشتري شيئًا مختلفًا يأكله من شاطئ بولاق، فلم تكن معه أية نقود، مثله في هذا مثل معظم أهل قريته الذين لم يعرفوا إلا التعامل بالمقايضة، إذا فاض عن أحدهم شيء من غلة أو بيض دجاج، يُبادلونه بالسكر أحيانًا، وبالدخان لمن يُدخنون النارجيلة في أحيان أخرى.

وسرعان ما انتزعه مخلوف من الفرجة ليسير مع بقية الفوج في طابور طويل، يقطعون شارع بولاق الترابي المرشوش بالماء، يحرسهم القواصة من على الجانبين في طريقهم إلى محطة القطارات في "باب الحديد".

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى مسعود ومن معه مدينة القاهرة المحروسة، لكن صيحات مخلوف الغاضبة وطرف عصاه اللاسعة جعلت كل واحد منهم أن تنتظم خطواته مع خطوات الذين يهرولون أمامه أو خلفه، لكي لا يتعثر فيقع فتصيبه ضربات من عصا مخلوف شيخ البلد التي لا ترحم!

وعندما وصل الفلاحون إلى رصيف محطة باب الحديد، وجدوا في انتظارهم قطارًا طويلاً به عدد لا ترى العين آخر عرباته، حتى تصور مسعود أنه لا نهالة لها.

إنه قطار تم إعداده ليركبه ألف وخمسمائة فلاح، ساقتهم حكومة أفندينا الخديو تنفيذاً لطلبات الشركة الأجنبية ليعملوا في خدمتها لحفر قناة في الصحراء بين مدينة السويس القديمة على البحر الأحمر، وبورسعيد الجديدة على البحر المتوسط، والتي أطلقت عليها الشركة هذا الاسم "ميناء سعيد" (بورسعيد) مجاملة لأفندينا الخديو سعيد باشا الذي سخر للشركة كل شعب مصر بغير حساب، يعملون لها بنظام لا يختلف كثيرًا عن السخرة شبه المجانية أو العبودية المتعارضة مع كل القيم الإنسانية.

ودفع كل شيخ بلد مجموعة عماله من الفلاحين داخل عربة من عربات القطار. وعندما لم تتسع العربات رغم عددها الكبير لكل الفلاحين، كدسوا كل مجموعتين عددهما معًا خمسون فلاحًا في عربة واحدة، غير مكترثين بأن يقفوا عندما يتعذر عليهم العثور على مكان للجلوس فوق أرضية العربة.

ووجد مسعود نفسه داخل عربة السكة الحديد، يقف على أرضية من الصُلب ليس فوقها مقاعد، تُحيطها من جوانبها الأربعة جدران هي

أقرب إلى أن تكون أسوارًا عالية من الحديد ليس لها سقف!!

وفي ضجيج مرتفع أغلق القواصة من الخارج أبواب العربات التي دخلها الفلاحون.

قال مسعود لمندور: "نقلونا من حبس بطن الصندل إلى حبس سجن هذه العربات!!".

قال مندور: "على الأقل نستطيع هنا أن نشم الهواء ونرى السماء!".

قال مسعود وهو يتأمل القش الذي يُغطي أرضية العربة: "نشمُ الهواء في هذه العربات المخصصة لنقل الجمال والبقر! إنهم يعاملوننا كأننا ماشية أو دواب!!".

وبينما وقف مسعود ومندور يتطلعان إلى السماء، جلس مُعظم الباقين القرفصاء على أرضية العربة القذرة، والقطار يتحرك ببطء متجهًا إلى بنها التي وصلها بعد أربع ساعات، ثم واصل زحفه حتى وصل الزقازيق بعد أربع ساعات أخرى، والواقفون قد أرهقهم الوقوف وأتعبهم، والجالسون يتململون من ضيق المكان ورائحته!!

(٨)

في محطة الزقازيق، نبه معاون البوليس رجاله من القواصة أن يتيقظوا لحراسة عربات القطار، بينما جمع رؤساء العمال ومعظمهم من مشايخ البلاد وقال لهم: "هنا في الزقازيق سنقود نحن رجال الأمن القادمون من المديريات بتسليم العمال (يقصد الفلاحين) الذين أحضرناهم، إلى رجال الشركة الذين سيوقعون لنا إقرارًا باستلام الأنفار (ولم ينتبه إلى أنه يتحدث بألفاظ يستخدمها عادة من يبيعون الماشية في الأسواق العمومية)، وبذلك يصبح كل واحد منكم مسئولاً مسئولية كاملة عن عدد وسلامة عمال فرقته في مواجهة الشركة".

وتمهل معاون الشركة قبل أن يُكمل حديثه: "بعد إتمام عملية التسليم والتسلم، ستكون أمامكم أربعة أيام تقطعون خلالها المسافة الباقية إلى ساحت الحفر سيرًا على الأقدام. لقد خصصوا لكم منطقة حفر هناك اسمها "مرتفعات عتبة الجسر" توجد بجوار بحيرة مالحة اسمها "بحيرة التمساح". سيكون الجزء الأول من طريقكم موازيًا لترعة الماء العذب التي تتفرع في النيل وتنتهي عند قرية "القصاصين"، وستكون القصاصين آخر الأرض المزروعة والمعمورة في طريقكم، بعدها تسيرون في صحراء ليس بها ماء ولا طعام، شديدة الحرارة نهارًا باردة ليلاً. تنبهوا إلى أن العمال يجب أن يحافظوا على ما معهم من طعام، فهم لن يتسلموا الجراية وهي من الخبز الجاف وحده، إلا بعد أول يوم من أيام العمل، وقد يحاول بعض العمال التمرد في الطريق إذا نفذ ما معهم من طعام قبل وصولكم".

وأضاف معاون الشرطة: "سيكون كل واحد منكم مسئولاً عن مراقبة سلوك عماله أثناء السير وحتى الوصول إلى منطقة الحفر، ومسئولاً عن قيادتهم صباح كل يوم إلى مكان الحفر، والإشراف على عملهم وإنتاجهم أثناء النهار ومنع هروبهم أثناء الليل، وضل المنازعات التي تنشأ بينهم. ولكم الحق أيضًا في استخدام العصا أو الكرباج (السوط) في ضرب وتأديب المقصرين منهم، أو اقتراح الخصم من أجورهم مهما بلغ مقدار الخصم، أو تسليم من يحاول الهرب أو التحريض على عدم العمل إلى رجال حمدي بك نائب أفنديا، يجلد المذنب ويضعه في السجن ويحرمه من كامل أجره، ولن تنتهي مسئوليتكم إلا بانتهاء الشهر المحدد في العقود لعمل العمال، بعدها يعود كل عامل ليصبح فلاحًا مسئولاً عن نفسه وعن تدبير أمر عودته إلى قريته".

(٩)

بعد ساعات قليلة وجد مسعود نفسه يصير ضمن طوابير متراصة متجهة إلى صحراء السويس، تتكون من آلاف الفلاحين الحفاة الأقدام، يحرسهم على الجانبين عشرات من فرسان القواصة رجال الأمن، يروح أفرادهم ويجيئون فوق خيولهم لملاحظة طوابير العمال، يفرضون عليهم حراسة مشددة.

وكان هؤلاء القواصة قد أجبروا "مسعود" كما فعلوا مع غيره، على أن يترك "الزكيبة" التي بها طعامه وقلة الماء التي معه، ليحملها في مقدمة الأفواج عدد من الجمال كانت تسير على مهل، يتبعها العمال في صفوفهم الطويلة حتى إن طلائعهم كادت أن تختفي تمامًا عن أنظار الصفوف الخلفية، وهم يواصلون السير وقد ربطهم رؤسائهم بعضهم

إلى بعض بالحبال كأنهم قافلة جمال أو قطيعٌ من العبيد.

همس مندور إلى مسعود: "أحس بالعطش الشديد".

همس مسعود: "تحمل.. مثلك مثل غيرك!".

قال مندور: "لماذا أخذوا منا قلة الماء؟".

قال مسعود: "لكي لا نهرب، لكن حُجّتَهم التخفيف عنا فلا نحمل شيئًا لنسير على نحو أسرع!".

قال مندور: "كيف نسرع ونحن نعاني العطش أثناء سير طويل في يوم حار وسط هذه الصحراء؟!".

وفجأة انقض عليهما مخلوف بعصاه صائحًا: "لماذا هذا التباطؤ؟! توقفا عن الكلام وواصلا السير بسرعة!".

وكان التعب والإرهاق قد بلغا منهما مبلغًا عظيمًا عندما توقفت القافلة أخيرًا، واسترد العمال "قُلل" الماء وزكائب الطعام من فوق ظهور جمال المقدمة.

* * *

وقبل مغيب شمس اليوم الثالث على هذه المسيرة الطويلة الشاقة، (وكانت قافلة الرجال الضخمة قد قضت ذلك اليوم كله في الصحراء لا تقع عيونهم إلا على الرمال)، شاهد مسعود كما شاهد غيره، سربًا من الحدأة قد تجمعت فوق نقطة من الصحراء التي كانوا يشقونها ببطء.

قال قائد فرسان شرطة القواصة الذي كان يسير بحصانه قرب شيخ البلد مخلوف:

"قل لهم إن هذه الطيور الرمامة ومعها ذئاب الصحراء أيضًا، تنهش جسد رجل حاول الهرب من ساحات الحفر فقتله العطش فوق رمال الصحراء وتحت لهيب الشمس".

وارتجف قلب مسعود في صدره وقد تذكر أخاه مصطفى، فقد كانت تلك هي أول مواجهة لن مع أسباب الهلاك المريعة في ساحات حفر قناة السويس.

وخلال اليوم الرابع من السير في الصحراء، شاهد مسعود قافلة جمال طويلة يحمل كل جمل منها برميلين.

وقد عرف فيما بعد أنها قوافل نقل الماء إلى المسخرين في ساحات القناة، وأنها الوسيلة الوحيدة لوصول الماء الصالح للشرب إلى العمال المجهدين بالعمل هناك في حر الصحراء وأن رحلة جمال قافلة الماء تستغرق عادة أربعة أيام، وعندما تهب عواصف الرمال الشديدة العاتية فتمنع تلك القوافل من مواصلة سيرها، أو عندما تضل القوافل الطريق فتتأخر ولو يومًا واحدًا، فإن العمال في ساحات الحفر يتساقطون موتى مثل الذباب نتيجة الإرهاق والعطش، ويلفظون آخر أنفاسهم قبل أن تصل تلك الجمال بما تحمل من براميل، وأن عشرات الآلاف من هؤلاء الفلاحين الذين انتزعهم رجال حكومة أفندينا من حقولهم لإجبارهم على العمل في حفر قناة السويس، لم يعودوا – أبدًا – إلى أولادهم وزوجاتهم وأمهاتهم بسبب العوائق القاتلة التي كانت تؤخر قوافل جمال نقل الماء عن الوصول إلى ساحات الحفر في مواعيدها المقررة.

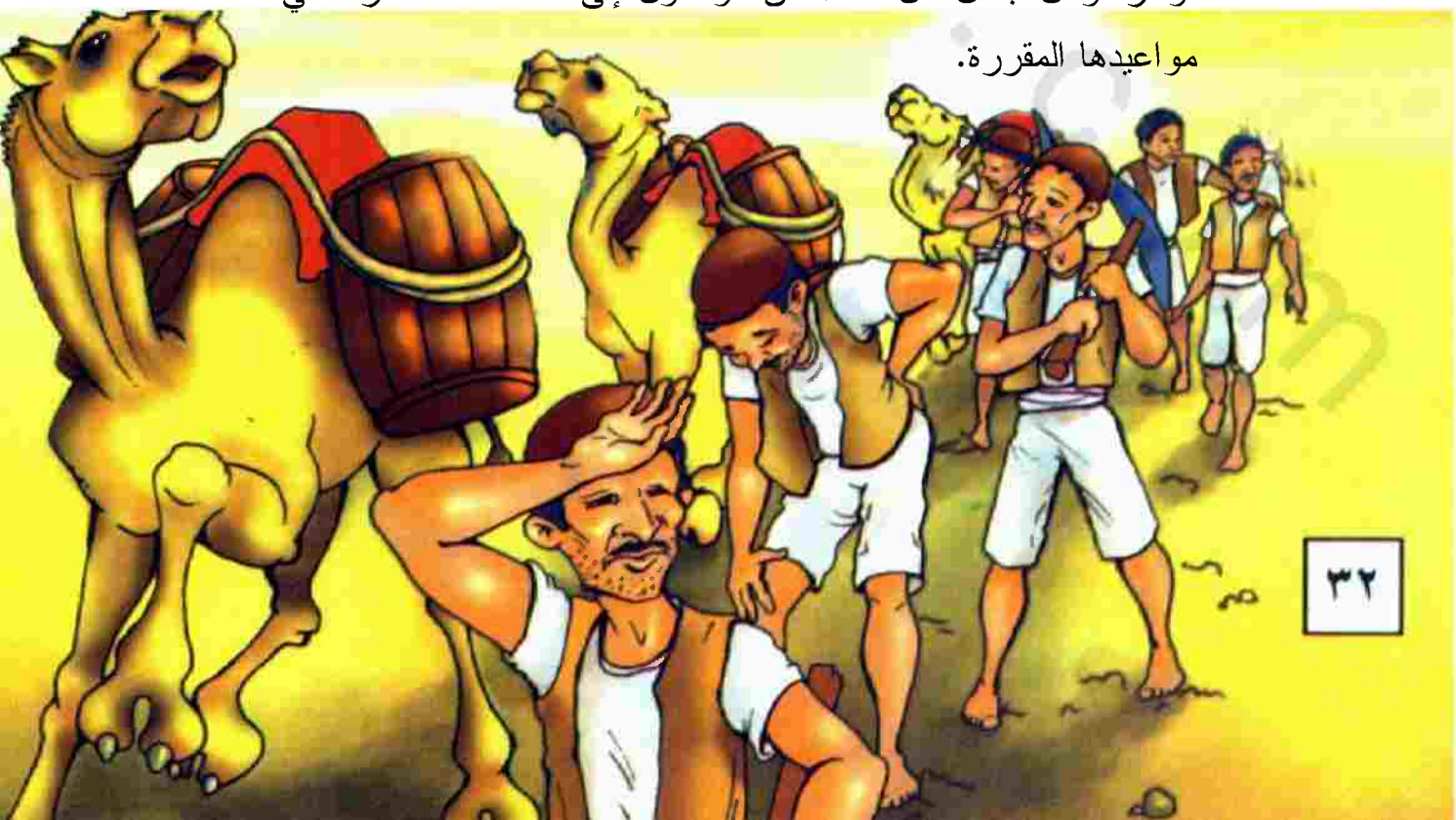

(١٠)

وبعد ذلك السير الطويل المرهق فوق رمال الصحراء، وصل مسعود ومندور وبقية رجال شارونة إلى منطقة "مرتفعات عتبة الجسر"، الواقعة في منتصف الصحراء بين السويس وبورسعيد، وهي المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم "الإسماعيلية" مجاملة لإسماعيل باشا الذي أصبح خديو مصر بعد وفاة الوالي سعيد.

كان وصولهم مع الغروب. ومع ذلك اضطر الرجال إلى الوقوف في طابور آخر، قالوا لهم أنه "طابور الفرز" الذي لا يجوز أن يتأخر ولو يومًا واحدًا، لأن الفوج السابق الذي كان يعمل في الحفر قد أنهى في ذلك اليوم آخر أيام عمله، ولا بد أن يحل الفوج الجديد محله منذ صباح الغد، لكي لا يتوقف العمل في حفر القناة يومًا واحدًا.

وأخذ رجال الشركة يفحصون العمال كما يفحص المشترون الدواب..

هذا ينضم إلى "فريق الأقوياء" من الرجال، يُسلمون كل رجل منهم فأسًا يضرب بها الأرض والصخر لحفر مجرى القناة وإزاحة التلال من طريقها، خاصة في منطقة "مرتفعات عتبة الجسر"، التي كان على عمال شارونة تحطيم تلال صخورها التي يبلغ ارتفاعها عشرين مترًا.

وهذا ينضم إلى "الفريق الأقل قوة"، يُسلمون كل رجل منهم قفة ليضع فيها الرمال والأحجار التي تتخلف عن عمليات الحفر ليُلقي بها بعيدًا عن مجرى القناة.

أما صغار السن الذين تقل سنهم عن اثنتى عشرة سنة، فعملهم الأساسي حمل قرب الماء الجلدية، يصبون الماء من القربة في القلل التي يشرب منها العمال.

وعندما جاء دور مسعود أمام موظف الشركة الذي يقوم بعمليات الفرز، فوجئ بشيخ البلد مخلوف يتطوع ليقول للموظف وهو يشير إلى مسعود: "هذا يصلح تمامًا لنقل مخلفات الحفر".

ولم يتردد الموظف في أن يشير لمسعود لكي ينضم إلى "الفريق الأقل قوة"، بغير أن يكون هناك مجال للمناقشة أو الاحتجاج لصغر سنه.

قال مسعود لنفسه: "ها هو مخلوف الرذل يؤكد أنه لن يتوقف عن معركته ضدي!".

(١١)

وقبل شروق شمس صباح اليوم التالي، بدأ أول أيام عمل مسعود في الحفر.

خلع – مع بقية الفلاحين – جلبابه الأزرق، وألقى به علـــى الأرض بجوار قلة الماء التي يشترك في الشرب منها مع عدد من زملائه.

وسلمت الشركة إلى مخلوف "كرباجًا" من الجلد المجدول، وقالوا لـــه: "لا تتردد في استخدامه لمن يتباطأ أو يتهاون في العمل!".

وبدأ مسعود العمل.. يهبط بالقفة فارغة إلى قناع القناة حيث يملؤهـــا بالصخور والأحجار التي حطمها رجال "الفريق الأقوى"، ثم يحملهـــا فوق كتفه ويسعد إلى جسر القناة ليفرغها، ويهبط مرة أخرى ليعـــاود نفس العمل.

كان ينزل مع طابور النازلين ويصعد مع طابور الصاعدين، بإيقـــاعٍ واحدٍ سريع متكرر لا يسمح لأحد بلحظة من راحة أو تباطؤ.

لكن "مسعود" كان أصغر أفراد الفوج سنًا وأقلهم وزنًا وقوة. ولـــذلك كان أول من تسلل إليه الإجهاد.. لقد كان يكفي بالنسبة إليه أن يحمل قربة ماء!

وقاوم مسعود بكل عزيمته حاجته إلى الجلوس فوق كومـــة أحجـــار ليستريح لحظات قبل أن يملأ "قفته"، لكنه عندما أحس أنه أوشك على السقوط على الأرض من الإرهاق، اضطر أخيرًا أن يجلس بجـــوار قفته وهو يلهث، وقد ملا العرق وجهه وانحدر على عينيه فأحرقهما، فتوقف رجل أو اثنان عن العمل يتطلعان إليه في استطلاع وإشفاق.

وكأن مخلوف لم يكن ينتظر إلا هذه اللحظة، فانقض "بكرباجه" علـــى جسد مسعود، يضربه في كل موضع وهو يصيح به:

"أنت تحرض العمال على العصيان.. قم .. تحرك.. احمل قفتك.. أسرع..".

بينما مسعود يصيح في ألم وغضب وهو يحاول بغير جدوى أن يحمي وجهه وكتفه من لسعات السوط مستخدمًا ذراعيه وكفيه.

ومن سوء حظ مسعود أن "حمدي بك" القاسي، نائب أفندينا الخديو، كان يمر في تلك اللحظة بجوار منطقة عمل رجال شارونه، فتوقف فوق حصانه، وأرسل رجال القواصة لإحضار المذنب أمامه!

واندفع مخلوف يقول في حماس شاكيًا الصبي مسعود لحمدي بك، كأنما ليثبت إخلاصه المتناهي لشركة حفر القناة ولأفندينا:

"هذا النفر يُحرض بقية الرجال على الجلوس والامتناع عن العمل متعللاً بأنه صغير السن!!".

وبغير أن يستمع "البك" إلى كلمة من مسعود، ودون أن يُلقي عليه نظرة فاحصة ليعرف فعلاً أنه مجرد فتى صغير، أصدر أمره بغير تردد:

"ألقوا بهذا المتمرد في السجن".

وبعد الغروب وقبل أن يتناول رجال شارونه عشاءهم، أمرهم القواصة – رجال أمن حمدي بك – بالتجمع في حلقة وسط المكان المخصص لمبيتهم.

لم تكن هناك خيام ولا أكشاك للمبيت، بل كانوا ينامون في العراء على الأرض وفوقهم السماء، بعد أن قال لهم رجال الشركة: "كأنكم في حقولكم.. هل تنامون تحت خيام وأنتم تحرسون زراعاتكم ليلاً؟! أما إذا شعرتم بالبرد فسنعطيكم أخشابًا تشعلون فيها النار للتدفئة". وكانت هذه هي "البيوت" التي جاء ذكرها في الإعلان الذي علقوه فوق باب مسجد شارونه لدعوة الفلاحين للعمل في حفر القناة، والذي قالوا

فيه إن الشركة قد أعدتها لراحتهم!!

وفي وسط حلقة الفلاحين، فرش رجال "البك" على الأرض قطعة كبيرة من جلد البقر، كان الموظفون الأجانب في الشركة يطلقون عليها تهكمًا "بيت العدالة المصرية".

ثم ذهب اثنان من رجال الأمن القواصة الذين يتبعون حمدي بك إلى غرفة السجن، وجذبا الصبي "مسعود" من ذراعيه، وأجلساه متربعًا فوق قطعة الجلد، وكشفا ملابسه عن ظهره العاري!..

ثم صرخ حمدي بك في شيخ البلد مخلوف الذي كان يقف مستعدًا وقد شمر عن ساعده: "اضرب!".

وبكل ما فيه من قوةٍ، نزل مخلوف "المفتري" بالكرباج على ظهر الصبي!

وتحمل الفتى أول ضربةٍ.. ثم بدأ يئن مع الثانية.. وصرخ مع الثالثة..

وأدار الرجال الواقفون وجوههم بعيدًا لكي لا يكونوا مشاركين ولو بالمشاهدة في عذاب زميلهم الصغير!

وعندما وصلت الضربات إلى العاشرة كان صوت مسعود قد خرس تمامًا، وسقط على جانبه فوق الأرض وقد فقد الوعي...

قال حمدي بك بغير مبالاةٍ: "استدعوا الطبيب، فإذا كان قد مات ادفنوه في الرمال!"

وجاء الدكتور منصور، وهو الطبيب المصري الذي كان مسئولاً عن تلك المنطقة من مناطق حفر قناة السويس، ورفع ذراع مسعود وجس نبضه، ثم نهض وقال: "إنه لم يمت.. انقلوه إلى المركز الطبي".

وتعاون مندور مع اثنين من رجال شاونة فحملوا جسد مسعود الذي تسيل

منه الدماء وتكاد الحياة أن تتوقف فيه، وساروا خلف الطبيب.

وكانت هذه هي المواجهة الثانية بين الصبي الصغير وأسباب المـــوت في ساحات الحفر، لكنها كانت مواجهة دامية!

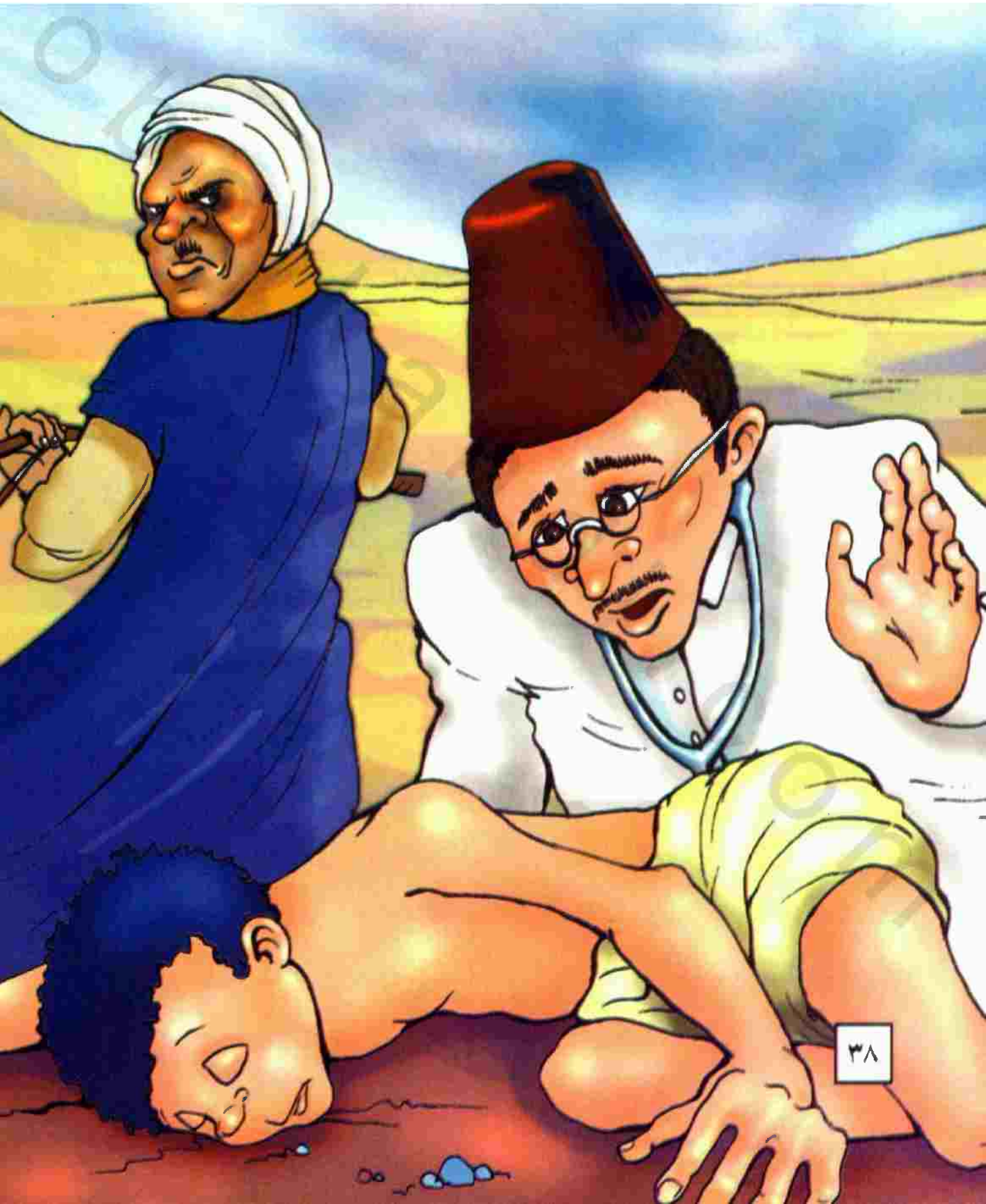

(١٢)

بعد يومين فتح مسعود عينيه، واستطاع أن يتحدث مع الدكتور منصور.

قال له الطبيب: "لقد أعطاك حظك عمرًا جديدًا، لقد فقد كثيرون قبلك الحياة تحت الكرباج مع أنهم كانوا أقوى منك".

وفي اليوم التالي حكى مسعود للطبيب قصته مع شيخ البلد مخلوف وختمها بقوله:

"ولن يكف حتى يقضي على حياتي، فهي الشيء الوحيد الذي أملكه في هذه الدنيا، ليُصيبَ أمي في صميم قلبها عندما تفقد ابنها الثاني في ساحات الحفر!".

وجذبت هذه العبارة حب استطلاع الدكتور منصور، فحكى له مسعود أخبار عدم عودة أخيه مصطفى واختفاء مصطفى واختفاءه أثره في ساحات الحفر.

ولاحظ مسعود أن أخبار أخيه قد أثارت الطبيب بشدة، فقد عاد الدكتور منصور يسأل "مسعود": "تقول إنك من قرية إسمها شارونة واسم أخيك مصطفى، وإنه جاء هنا منذ حوالي ثلاثة شهور؟".

قال مسعود: "والدتي لا تزال تأمل في أن يعود، لكن بعد ما واجهته أنا هنا من أسباب الهلاك، لا أعتقد أنها ستراه ثانية أبدًا".

وفي غموض قال الطبيب: "من يدري؟! .. رحمة الله واسعة!"

وتطلع مسعود إلى ملامح الطبيب متسائلاً عما يخفيه خلف تلك العبارة، عندئذ قال له ا لطبيب:

"إذن استمع مني إلى ما سأقول، فسأحكي لك أحد أسراري التي كان يستحيل أن أحكيها إلا لك أنت وحدك من بين الناس جميعًا".

قال الطبيب منصور في صوت خافت:

"منذ ثلاثة شهور أثناء قيام أفندينا الخديو بزيارة إلى الوجه القبلي، أمر بأن يرسلوا – إلى ساحات حفر القناة – خمسة آلاف جندي من جنود الجيش قاربوا على إتمام مدة خدمتهم العسكرية. وقد تم نقل هذا الحشد من الجنود في السفن النهرية إلى القاهرة ثم بالقطارات إلى الزقازيق، ومن هناك بعث بهم مندوب شركة القناة إلى هنا للمشاركة في أعمال الحفر في نفس منطقة مرتفعات عتبة الجسر التي بها مركزي الطبي".

وعندما وصل الجنود وعرفوا أنهم جاءوا بهم لتكسير الصخور ورفع الأحجار ونقلها وحفر رمال الصحراء، احتجوا قائلين:

"هذا عمل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة لجرائم عسكرية كبرى". ورفضوا العمل علانية وطلبوا العودة إلى وحداتهم، بل غادر بعضهم ساحات الحفر فعلاً عائدين إلى مديريتهم في قنا.

وقد حاول رجال الشركة الأجانب إلقاء القبض على بعض الجنود بتهمة أنهم حاولوا الهرب من ساحات الحفر، واقترحوا على حمدي بك أن يوقع عليهم عقوبة الجلد العلنية لإرهاب بقية الجنود، لكن رجال الجيش المصري كانوا على درجة كبيرة من الصلابة، فثاروا لكرامتهم وتجمعوا في مظاهرة كبرى.

واضطر "دليسبس" مدير شركة حفر القناة أن يتدخل شخصيًا، وأصدر أوامره بعدم توقيع أية عقوبات على الجنود الذين رفضوا العمل في حفر القناة، لكي لا تنتشر أخبار تمردهم بين عمال السخرة، وسمح لهم بالعودة إلى قُراهم في قنا.

لكنه، في نفس الوقت، أمر بإنزال أشد العقاب على أي فلاح آخر من عمال السخرة يحاول أن يحرض بقية العمال على أن يقتدوا بجنـــود الجيش في هجر ساحات الحفر!

وكان أول من قبضوا عليه وهو يحكي لزملائه خبر امتنـــاع الجنـــود عن الخضوع لإذلال السخرة في حفر القناة، وكيف خضعت الـــشركة لهم وأعادتهم إلى بلادهم، شاب عرفت أنه من محافظة المنيا، مـــات عدد كبير من زملائه اختناقًا عندما انهار فوقهم جبل من الرمال وهم يحفرون مُرتفعات عتبة الجسر فدفنتهم تحتها، وذلك بعد أن مات عدد آخر منهم عندما تأخرت قافلة الجمال التي كانت تحمـــل لهـــم مـــاء الشرب بسبب عاصفة رملية شديدة حاصرت القافلة وهي في طريقها إلى هنا، ففقد الرجال حياتهم عطشًا.

قال الطبيب: "لقد جلدوا ذلك الشاب بقسوة ليكون عبرة لغيره، وظنوا أنه مات، لكنني أخذته على المركز الطبي كما أخذتك وعالجته إلـــى أن استرد أنفاسه. ومع ذلك خشيت أن يقبضوا عليه مـــرة ثانيـــة إذا سمحت له بمغادرة المركز الطبي والعودة إلى أعمال الحفر، فأعلنت أنه مات وأنني أمرت بدفن جثمانه كما أفعل مع كل من يتوفى داخـــل المركز، وفي نفس الوقت كان هناك موتى آخرون بسبب انتشار وباء بين العمال، فلم يتنبه أحد إلى أنه لم يكن بين أصحاب الجثث التي تم دفنها".

وختم الطبيب حديثه قائلاً: "وكان اسم هذا الـــشاب مـــصطفى، وقـــد أخبرني أنه من قرية أسمها شارونة!".

وكتم مسعود سيحة كادت تفلت منه!!

هنا أضاف الدكتور منصور: "وأنت تريد طبعًا أن تسألني: أين يوجد مصطفى الآن؟ لكن هذا سر سأخفيه عنـــك مؤقتًـــا لأجـــل ســـلامتك وسلامتي!".

(١٣)

وبعد بضعة أيام تساءل الدكتور: "أخبرني يا مسعود، هل يتعاطف معك بقية الرجال القادمين من شارونة؟".

قال مسعود: "كلهم يطلقون على مخلوف اسم "الرذل" ويعانون من ظلمه وقسوته، لكن يستحيل أن يفعلوا شيئًا لأجلي وهذا الرجل يشرف عليهم".

قال الطبيب: "بعد أن تستعيد قدرًا من صحتك، سأعلنُ لرجال الشركة أنك عدت إلى الفوج الذي يُشرف عليه مخلوف هذا، وعليك بعد ذلك أن تنفذ بدقة ما سأتفق معك على أن تقوم به".

* * *

وفي مساء أحد الأيام التالية عاد مسعود إلى زملائه الذين يشرف عليهم مخلوف. وما أن رآه شيخ البلد حتى صاح به:

"في المرة القادمة لن تنجو بحياتك من كرباجي!!".

لكن في فجر اليوم التالي، عندما كان مخلوف يصيح على الرجال أن يستيقظوا ليذهبوا إلى مكان عملهم، اكتشف كل أفراد الفوج أن "مسعود" قد اختفى!!

صاح مندور صديق مسعود بصوتٍ مرتفعٍ، قاصدًا أن ينشر الخبر بسرعة بين كل جماعات الحفر:

"مسعود هرب.. مسعود خاف من انتقام شيخ البلد مخلوف، فهرب...".

وبسرعة جاء رجال الشركة مع القواصة من رجال الأمن ليتحققوا من صحة الخبر.

وفي الحال أمر حمدي بك بإلقاء القبض على رئيس العمال شيخ

البلد مخلوف، لأنه أهمل في حراسة أفواج الفوج الذي كان تحت حراسته، وترك واحدًا منهم يهربُ من العمل في حفر القناة.

ولم يضعه في السجن، بل ساقه إلى ساحة الحفر، وأمره أمام كل رجاله الذين انتزعوهم من شارونة، قائلاً:

"اخلع ملابسك!".

فخلع مخلوف ملابسه الخارجية وألقى بها على الأرض بجوار الجلاليب الزرقاء.

ثم أمره حمدي بك وهو يشير إلى كومة من أدوات الحفر:

"احمل هذه الفأس"

فحملها مخلوف..

ثم أضاف حمدي بك:

"لقد أنزلتك إلى درجة نفر.. انزل الآن مع عُمالك إلى قاع القناة، وإياك أن تقصر في الحفر أو في تكسير الأحجار وإلا كسرت رأسك قبل سلخ جلدك".

ولأن شيخ البلد تعود الإمارة والإدارة ولم يتعود أن يعمل بيديه، فما إن وافى الظهر حتى تعذر عليه أن يرفع ذراعًا أو يحرك ساقًا، وسقط الفأس من بين يديه، وجلس فوق قطع الصخور والأحجار، ولم يقم!!

وتذكر رجال شارونة أنه في نفس ذلك المكان وفي وقت مشابه من النهار، سبق لمسعود الصغير أن سقط من الإعياء فلم يرحمه سوط الشيخ مخلوف!

عندئذ أمر حمدي بك رجاله أن ينقلوه إلى السجن، فسحبه القواصة إلى هناك وهو يجر رجليه جرًا، وقد اكتشف مدى خطأ تصوره أن

خدمته للأسياد في القرية وفي شركة القناة ســـتحميه مـــن طغيـــانهم وظلمهم!!

obeikandl.com

وبعد الغروب، أمر حمدي بك بجمع كل رؤساء العمال في حلقة وفي مقدمتهم الرجال القادمون من شارونة، وقام القواصة بفرض قطعة جلد البقر الكبيرة، وسحبوا "مخلوف" من سجنه ونزعوا الثياب عن ظهره، وأجلسوه فوق قطعة الجلد كما سبق أن أجلسوا "مسعود"، ومخلوف لا يستطيع الاحتجاج ولا المقاومة بسبب الإرهاق ونتيجة آلام يحس بها في صدره.

وتصفح حمدي بك وجوه القادمين من شاورنه مع مخلوف، واختار من بينهم "مندور" وهو يقول له:

"هل لك يد قوية؟".

وقبل أن يجيب مندور كان حمدي بك يضع بين يديه السوط ويقول له:

"أجلده عشرين جلدة لكي يتعلم كل رئيس عمال كيف يجيد الحراسة، فلا ينام ويترك العمال يهربون من رقابته في ظلام الليل".

أمسك مندور بالكرباج وقد تذكر كل ما فعله مخلوف بصديقه مسعود وبكل أفراد الفوج.. لقد جاءت لحظة العقاب!

ورفع يده بالكرباج..

لكنه في تلك اللحظة تردد!

أحس كأن الشلل أصاب ذراعه..

تذكر أن الشيخ "مخلوف" هو قبل كل شيء شيخ بلدة شارونة.. قريته!!

وأحس حمدي بك بتردد مندور، فانتزع السوط من بين يديه وهو يسبه في غضب قائلاً

"فلاح جبان.. فلاح ضعيف!!"

وسلم حمدي بك السوط إلى رئيس القواصة.

وعند الضربة التاسعة تهاوى جسد مخلوف وسقط على جنبه فوق الأرض، لكن حمدي بك أمر رئيس القواصة أن يواصل الضربات حتى يكتمل عددها إلى العشرين.

وعندما جاءوا بالطبيب منصور، قرر أن الرجل لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن تصيبه الضربة العشرين.

قال حمدي بك في استهانة: "ادفنوه!"

تعاون رجال شارونة في غسل جثمان الشيخ مخلوف، وأقاموا عليه صلاة الجنازة، ثم حفروا في الرمال حفرة، وأهالوا فوقه التراب.

لقد قاموا بما يفرضه الواجب عليهم، لكن عيناً وحدة لم تذرف دمعة على شيخ البلد الذي لم يعرف في حياته العدل أو الرحمة!

(١٤)

بعد أيام، عندما خيم الظلام، صعد الطبيب منصور إلى غرفة ضيقة تنتهي إليها درجات السلم الذي يؤدي إلى السطح في بيته الصغير، وقال لمسعود الذي كان يختفي هناك:

"غدًا يغادر الفوج الذي جئت معه من شاورنة ساحات الحفر، وبعد غدة أسافر إلى بورسعيد، وسترافقني تحمل لي حقيبة ملابسي، فقد اعتدت أن أصطحب معي في كل مرة أعود لزيارة أسرتي واحدًا من العمال الذين أتموا شهر عملهم، كمرافق لي يساعدني في حمل حقائبي. ومن بورسعيد اركب سفينه تعبر بي بحيرة المنزلة إلى بيت أسرتي في المطرية بمديرية الدقهلية على الشاطئ الآخر للبحيرة. ولن يتعرف عليك أحد ما دام الفوج الذي جئت معه قد سافر، خاصة في فترة استقبال آلاف العمال الوافدين الجدد ليحلوا محل العمال السابقين. الشركة لا تهتم بمراقبة من أتموا مدة عملهم، ولا يهتمون أن يصحبني أحدهم ليعمل في أرض أسرتي بالمطرية".

في تلك اللحظة أشرقت على ذهن مسعود حقيقة المكان الذي يمكن أن يوجد فيه أخوه مصطفى، لكنه لم يقل شيئًا!

* * *

وتقابل الأخ الأصغر مع أخيه الأكبر داخل عشة الحراسة على حافة الحقول المزروعة بالأرز التي تمتلكها عائلة الطبيب منصور قرب مدينة المطرية بالدقهلية.

ومن مدينة المطرية سافر مصطفى ومسعود إلى الإسكندرية، ومنها بالقطار إلى القاهرة، حيث يذوب الناس في زحامها فلا يتعرف عليهم أحد.

وفي القاهرة، واجهتهما مشكلة أخيرة..

لقد قال لهما الدكتور منصور إن الشركة قد أبلغت مديرية المنيا بهرب مسعود، ولا شك أن المديرية قد أبلغت هذا الخبر بدورها إلى مركز مغاغة وعمدة شارونة، لإرجاع مسعود فورًا إلى ساحات الحفر إذا حدث وعاد إلى قريته.

أما عن مصطفى، فقد قال الطبيب: "لقد اعتادت الشركة عدم إبلاغ المديريات إلا بحالات الوفاة التي نُثبتها في سجلاتنا الطبية، لكن المديريات تحرص على عدم إبلاغ المركز ولا عمد القرى بتلك الحالات، لأن انتشار مثل هذه الأخبار بين الفلاحين يجعل من المتعذر جمع أي عمال جدد للسفر إلى ساحات حفر القناة".

قال مصطفى لمسعود: "علينا أن نبحث عن عمل في القاهرة، إلى

أن تنتهي عمليات جمع الفلاحين من القرى للسُخرة في أعمال حفر قناة صحراء السويس".

* * *

ورغم كل الأخطار، تسلل مصطفى ذات يوم ظهر مركب شراعي إلى مغاغة ومنها ليلاً إلى شارونة، وذهب محتميًا بالظلام لينقل إلى والدته أخباره وأخبار مسعود.

قالت الأم بعد أن أفاقت من المفاجأة، وقد استراح قلبها عندما وجدت ابنها الأكبر حيًا أمامها:

"عُد إلى أخيك يا مصطفى قبل انقشاع الظلام حتى لا يكتشف أحد وجودك هنا، وستزول هذه الغمة يومًا فتعود إلينا أنت وأخوك الصغير في ضوء النهار".

* * *

وقد استمرت تلك الغمة عامين آخرين، حتى وفاة "أفندينا سعيد".

وفي عهد خليفته "الخديو إسماعيل"، وبعد سنوات طويلة من العذاب، أوقفت مصر أعمال السُخرة، لكن بعد أن مات من أبناء مصر – أثناء كدحهم في حفر القناة – مائة وعشرون ألف فلاح، ضحايا هذا النظام الرهيب الذي فرضه الوالي سعيد على شعب مصر هدية بغير مقابل لصديقه دليسبس مدير شركة حفر قناة السويس، فجعل من أهل مصر، من شواطئ البحر المتوسط شمالاً إلى صخور أسوان جنوبًا، عبيدًا يتساقطون صرعى حتى انتهوا من شق قناة السويس، التي حفروها بعرقهم ودمهم بغير مقابل، لتحقيق مصلحة تلك الشركة التي نهبت مصر، وظلت تنهبها إلى أن قام الرئيس جمال عبد الناصر بتأميمها في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦م.

المكتبة الخضراء للأطفال

روائع من القصص ، تتألق بالخيال والأسطورة تقدمها ((دار المعارف)) لناشئة الأقطار العربية فيجدون فيها ما يناسب خيالهم ويساير أرواحهم وتطلعاتهم ، فى إطار التعبير الجيد والحروف المشكولة ، والإخراج الفنى المزين بالرسوم واللوحات الملونة .

وهى قصص يعتز بها كل فتى وفتاة ، ويعتز بها أولياء أمور أبنائنا ورجال التربية والتعليم ، فهى تغذى النشء وترفع نفوسهم وتوجههم الوجهة الصحيحة إلى طريق الخير والجمال .

صدر منها :

١ أطفال الغابة
٢ سندريلا
٣ السلطان المسحور
٤ القداحة العجيبة
٥ البجعات المتوحشات
٦ الأميرة الحسناء
٧ الرفيق المجهول
٨ الأميرة والثعبان
٩ الملك عادل
١٠ البلبل
١١ الأنف العجيب
١٢ الجميلة النائمة
١٣ عروس البحر
١٤ عقلة الأصبع
١٥ الأخوات الثلاث
١٦ البنت والأسد
١٧ المغامر الجرىء
١٨ قصير الذيل
١٩ الليمون العجيب
٢٠ فى جزيرة النور
٢١ الفأرة البيضاء
٢٢ جبل العجائب
٢٣ أليس فى بلاد العجائب
٢٤ الراعى الشجاع
٢٥ الصياد الماهر
٢٦ الكرة الذهبية
٢٧ الشاطر محظوظ
٢٨ الحصان الطيار
٢٩ أميرة القصر الذهبى
٣٠ دنانير لبلبة
٣١ نهر الذهب
٣٢ خاتم السلطان
٣٣ المرآة السحرية
٣٤ بنات الصياد
٣٥ الوزير الحكيم
٣٦ سر اللحية البيضاء
٣٧ سر الشعر الأسود
٣٨ القدم الذهبية
٣٩ الرحلة العجيبة لعروس النيل
٤٠ سر العلبة الذهبية
٤١ التاج المسحور
٤٢ عفاريت نصف الليل
٤٣ النجم الكبير
٤٤ مملكة العدل
٤٥ الصياد المسكين والمارد اللعين
٤٦ بدر البدور والحصان المسحور
٤٧ مغامرة زهرة مع الشجرة
٤٨ أمير فى بلاد الأقزام
٤٩ الطبلة المسحورة
٥٠ حلم من دخان
٥١ بلاد النهر
٥٢ حسناء والثعبان الملكى
٥٣ تائه فى القناة
٥٤ سلطان ليوم واحد
٥٥ ضوء النهار والملك زنكار

دار المعارف
٢٣١٥٣٣/٠١